الحلقة التاسعة

الزيدان

في الحديث عن الشموس والنجوم في سماء الفكر والأدب والثقافة.. في القرن العشرين، فإنه.. يمكن القول وبمنتهى الدقة.. بأن الأستاذ محمد حسين زيدان.. أو الأستاذ الزيدان كما تعارفت الأوساط على تسميته بذلك اعتزازاً وتقديراً وإكباراً لا انتقاصاً منه.. هو ابن القرن العشرين، الذي عاش معظم سنواته، فقد ولد في عقده الأول.. ومات في عقده الأخير، عن سبعة أو ثمانية وثمانين عاماً، ولذلك فقد عاش آخر العهود الثلاثة التي مرت بالحجاز: بدءاً بالعهد العثماني حين ولادته.. إلى أن قامت نهضة الأشراف عام ١٩١٦م.. وإلى أن انتهت في عام ١٩٢٥م.. وقامت دولة التوحيد تحت راية مؤسسها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن طيب الله ثراه، وكانت أمانة منه أن يسجل ذكريات تلك العهود الثلاثة.. في آخر كتبه الذي حمل ذات العنوان: «ذكريات العهود الثلاثة».. وإن كان تحته عنوان آخر مشبعاً برومانسية قد تتغلب على أمانة التاريخ عند البعض هو: «طيبة.. رحلة في الزمان والمكان»..

لكن تلك السنوات على طولها وقلة وفقر الكثير من أيامها لم تذهب هباءاً في حياة الأستاذ الزيدان، فقد جمع في قلبه

وعقله وصدره.. خلالها، ما لا يجمع من ألوان المعارف والثقافات والعلوم.. ليكون في النهاية هذا المثقف الموسوعي الشامل: اللامع والممتع والمحبوب من زملائه.. ومن الأجيال التي تتابعت من بعد، ولحقت به.. وقد كنت أحدهم خلال العشرين سنة الأخيرة من حياته على الأقل، فهو المؤرخ والنسابة.. المولع بسير أبطال التاريخ العربي الأول الإسلامي، وهو الكاتب والخطيب الذي إذا اعتلى المنبر.. أدار الرؤوس بارتجاله شغفاً وطرباً، وهو الأديب.. العاشق للكلمة: يكتبها أو يقرؤها أو يسمعها من شاعر أو مغنٍ أو بائع متجول في عرض الطريق، وهو الإذاعي التلفزيوني الفنانٌ.. عاشق الحياة وعاشق النغم.. بل والطرافة والنكتة.

إن هذا النجم الموسوعي الذي ملأ حياتنا الثقافية كاتباً ومتحدثاً ومحاضراً طوال سنوات نضجه وكهولته وشيخوخته.. بامتداد سنوات القرن العشرين، والذي عرف «حاضرة» المدينة المنورة و«باديتها» بعد أن تربى بين يدي جدته في «بيت الشّعر وسط حوش خميس» بطيبة الطيبة.. حتى إذا مرض بـ «ذات الجنب» برداً خافت عليه من أن يُصاب ثانية «فبنت داخل بيت الشّعر حجرة من الطين» تسعه وتسعها، فإذا وقف على قدميه لامس رأسه سقف الحجرة. عرف اليتم عندما ماتت «أمه» بـ «الدفتيريا».. وهو دون السابعة، وعرفه ثانية.. عندما ماتت «جدته» وهو دون التاسعة، وعرفه طوال حياته، لانشغال والده عنه بزوجاته الأحد عشر على التوالي فعاش «سأم الجفوة من زوجات الأب» كما روى، ولكنه آثر اعتزال زوجات أبيه، والعيش في «دكانه».. بعد أن هداه

وعيه المبكر بأن ذلك سيسلّمه «من أحداث كدر لوالده أو تكدر لزوجاته»، لينشغل بدراسته في المدرسة الهاشمية.. وبتحصيله في حلقات العلم بالمسجد النبوي الشريف، ليستزيد من علوم الشريعة والتاريخ الإسلامي والنحو والبلاغة، وليكمل منظومة دراسته في المدرسة وتلقيه في المسجد بتردده الدائم والمستمر على مكتبات المدينة المنورة، وإلى حد المبيت فيها.. كما علمت منه بأنه كان ينام في مكتبة «حكمت عارف» الشهيرة، حيث قرأ معظم ما فيها من أمهات الكتب والتراث لا.. بل أحسب أنه ذوَّب سطور تلك الكتب بالماء، ثم شربها دفعة واحدة.. فكان امتلاؤه الثقافي التاريخي التراثي غير المحدود، الذي جعله خطيب طلبة مدارس المدينة المنورة.. الذي يستقبل الدكتور محمد حسين هيكل صاحب «حياة محمد» عند زيارته للمسجد النبوي والتشرف بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جعل منه خطيب مثقفيها عندما أصبح «معلماً للصبيان» كما كان يقول، أو مدرساً عَلماً من مدرسيها ليستقبل بكلمات لا يقولها سواه: الزعماء والقادة الذين كانوا يترددون على زيارة المسجد النبوي من أمثال شكري القوتلي وأمين الحسيني ورياض الصلح، إنه هو ذلك الذي رآه صحبة الفكر والقلم الذين تجمعوا في العاصمة مكة.. عندما انتقل إليها قبل عام من بداية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٨م).. ليبهرهم بحافظته وذاكرته ومخزونه الثقافي التراثي الأصيل.. فيفسحوا له مكاناً بينهم، ليسبق الكثيرين منهم.. بعد ذلك.

* * *

كان طبيعياً أن يتقدم الأستاذ الزيدان في مكة من موقع لآخر.. فقد كان كما قال «أجد نفسي في مكة.. مكياً من أهل المدينة، وأجد نفسي في المدينة.. مدنياً من أهالي مكة».. وكان قد ترك المدينة ومهنة التدريس بها أو مهنة تعليم الصبيان، ليبدأ سكرتيراً لشيخ مشايخ الجاوة آنذاك.. ثم لتخطفه وظيفياً: مالية عبدالله السليمان وكوكبة المثقفين الذين تجمعوا فيها بدءاً من الصبان والآشي والعامودي والفقي.. وانتهاءاً بالكتبي والسعد والفودة إلى غيرهم.. وتجذبه صحفياً «بلاد» عبدالله عريف التي عاودت الصدور بعد انتهاء الحرب، ليكون أحد كتابها.. ثم ليصبح مديراً لتحريرها.. فرئيساً لتحريرها بعد دمجها مع صحيفة عرفات، ثم رئيساً لتحرير «جريدة الندوة» عند قيام عهد المؤسسات الصحفية..

لكن وعيه القديم والحكيم بمغادرة بيت والده إلى دكانه.. كان قد عاوده قبل ذلك عندما استقال من الوظيفة الحكومية في أحلى الأوقات وأفضلها وقبل أن يبلغ الخمسين من عمره.. ليتفرغ للقراءة والكتابة والبحث، فيسطع نجمه ويزداد تألقاً كواحد من أبرز كتاب المرحلة بعمقه التراثي وحرارة عروبة فكره وإسلامه الذي لم يفصل بينهما فاصل عنده طوال حياته، يستغرقه البحث التاريخي.. وتستغرقه الكتابتان: «السياسية» و«الاجتماعية» إلى جانب صوره القلمية التي تفرد بها عمقاً وإيجازاً، دون أن ينسى كلماته المجنحة.... التي كانت تطربه شخصياً قبل أن تطرب قراءه وسامعيه.. والتي تمتد جذور تربتها إلى أمير البيان الثاني عنده:

«مصطفى صادق الرافعي».. بعد أن حفظ في نفسه مكانة أمير البيان العربي (الأول) «شكيب أرسلان».. فقد ظل يبحث شهوراً طويلة عن قصيدته التي رثى بها أمير الشعراء شوقي حتى وجدها، والتي يقول مطلعها:

نادِ القريحة ما استطعت نداءها

إن الحقوق لتقتفيك أداءها

والتي يقول في ختامها:

فاسعد بعرش إمارة الشعر التي

ألقت إليك لواءها وولاءها

.. ليجمع كلماته المجنحة تلك في كتاب حمل العنوان نفسه، هو الخامس بين كتبه السبعة.. التي بدأت بكتابه التاريخي الإسلامي: «سيرة بطل».. وانتهت بكتابه عن الملك عبدالعزيز الذي فُتن به وبإنجازه في توحيد معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية في وطن واحد فكان كتابه التاريخي المعاصر: «عبدالعزيز والكيان الكبير»، وكان بينهما مجموعة أحاديثه الماتعة عبر الإذاعة فـ «التلفزيون».. التي أصدرتها له دار تهامة للنشر والتوزيع بذات العنوان الذي كانت تذاع به: «كلمة ونصف».. التي أحسب أن آلاف المستمعين والمشاهدين مازالوا يذكرونها، فقد كانت تلك الكلمة والنصف والتي كان يرتجلها.. ملفوفة بصدقه وإخلاصه.. مشبعة بدفء وعذوبة شجنه.

* * *

عندما بلغ الأستاذ الزيدان الثمانين من عمره.. أقام نادي جدة الأدبي حفلاً.. ليقول له: عمراً مديداً وسعيداً بإذن الله.. شارك فيه حشد من نخبة نخب الكتاب والمثقفين والأدباء والمتخصصين من الدارسين والأكاديميين، من الضياء وبلخير والزواوي وأبو مدين والخوجه.. إلى الشعراء: العارف والأميري ومحمد هاشم رشيد.. إلى الناقد المبدع الدكتور الغذامي، وقد كان لي شرف أن أكون من بين أولئك المشاركين.. تشدني إلى الأستاذ الزيدان محبتي له وسعادتي به وفرحتي ببلوغه الثمانين وهو في أعلى درجات لياقته النفسية والفكرية والوجدانية، ومن خلف ذلك كله.. أصداء مهاتفاتي الطويلة والحميمة له، ولقاءاتي المكتبية معه لأسوح معه مستمعاً في الغالب.. وهو يتنقل من الأدب إلى السياسة إلى التاريخ.. إلى مواقف الإسلام وسماحته.. إلى الفن والموسيقى والغناء وإعجابه بقولة جورج جرداق في قصيدة هذه ليلتي: «سهر الشوق.. في العيون الجميلة / حلم.. آثر الهوى إن يطيله».. وحديث في الحب.. إن لم نقله/ أوشك الصمت حولنا.. أن يقوله».. وإلى كلماته الرائعة المجنحة التي مازلت أحفظها وأذكر بعضها الآن.. كقوله لي عن أحد الزعماء والمنادين بالسلام مع إسرائيل كيفما كان: «تهود فكره.. حين تصهينت أعماله وتأمركت آماله»..!! وكقولته الأخاذة عن القرآن: «لقد نزل بالحجاز، ودُرس في المغرب، وقرئ في مصر، وحفظ في استانبول»..!! و... و. وما أكثر ما قال وحفظته له ذاكرتي..

لكن البهجة التي خرج بها من تلك الليلة.. بدأت تتآكل شيئاً فشيئاً.. ثم سريعاً، حتى وصلت به بعد خمس سنوات.. إلى حالة.. من الزهد.. والضجر.. بل والاكتئاب بعد أن تأكد له أن «جائزة الدولة التقديرية» قد تخطته - إلى غيره - وهو الأجدر والأحق بها..!؟